

دكتور
محمد محمد أبو موسى

أستاذ ورئيس قسم البلاغة
بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر

قراءة في الأدب القديم

مكتبة وهب

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠

فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب: قراءة في الأدب القديم
الطبعة: الثالثة .

اسم المؤلف: دكتور محمد محمد
أبو موسى

ط ٠ الثالثة. القاهرة. ٢٠٠٦
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -
عابدين - القاهرة.

٤٠٨ صفحة ١٧ × ٢٤ سم

تاريخ النشر: ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

رقم الإيداع: ٩٨/١١٢٠٦

الترقيم الدولي: I.S.B.N.

977-225-120-5

تحذير

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة
وهبة (للطباعة والنشر) . غير
مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا
الكتاب أو أى جزء منه ، أو تخزينه
على أجهزة استرجاع أو استرداد
إلكترونية ، أو ميكانيكية ، أو نقله
بأى وسيلة أخرى ، أو تصويره ،
أو تسجيله على أى نحو ، بدون أخذ
موافقة كتابية مسبقة من الناشر .

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher

قراءة في الأدب القديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله القائل « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين » وإن الفقه في هذا الشعر لهو من الفقه في الدين ورحم الله أبا عمرو بن العلاء الذى قال هذه العربية دين. اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأنصاره وأزواجه وذريته ومن تبعهم بإحسان اللهم آمين.

لا شك أنك مثلى ما قرأت قصيدة من هذا الشعر العريق وكتبت عنها ثم أعدت قراءتها، وتفقدتها إلا ظهر لك فيها من المعانى والأحوال والخواطر وأسرار الصنعة ما يجعلك تود لو أنك تستقبل من أمرك ما استدبرت لتضيف ما ظهر لك منها إلى ما كتبت، ولا شك أن المعانى التى تبدو لنا بعد طول المراجعة منها ما هو أخفى وأجل مما بدا لنا بالقراءات السابقة مهما تكررت، وليس هذا الحال فى الشعر فقط وإنما هو كذلك مع كلام العلماء؛ كل ذلك يزداد مع تكرار القراءة وتكرار إعمال العقل استنارة وعطاء.

وقد شرحت بردة كعب بن زهير ولم أقرأ فى الشعر شاعرا يتحدث عن صاحبه بمثل قوله:

لكنها خُلَّةٌ قد سيطَ من دَمِها فجَعَّ وولَّعَ وإخلافٌ وتبديلُ
فما تدومُ على حالٍ تكون به كما تلونُ فى أثوابها الغولُ

وهذا من أبين ما تجد فيه حديث الشاعر عن صاحبة مشيرا إلى غرض القصيدة، وتعجب من حال سعاد هذه التى ليست كحال غيرها من صواحباتها المذكورات فى مقدمات القصائد. صاحبها قلبه متبول ومتيم إثرها ثم هى تتلون كما تلون فى أثوابها الغول، وهاتان صورتان متدافعتان جدا، وقد يقع فى

النفس أن هذا أشبه برغبة كعب في عفو رسول الله ﷺ، وأنه إن أصابه فقد أصابه ما يحب وفوق ما يحب، وأن لم يصبه فهو في حال أهول من حال الذى صاحب الغول التى تتلون فى أثوابها، وأنا لا أقول أن سعادا رمز لطلب العفو لأن جلال الشعر فى أن تبقى معانيه محتملة، فإذا قلنا إن كذا رمز لكذا نكون قد حددنا الدلالة وخالفنا الشاعر الذى لم يرد تحديدها، ولو أراد ما أعجزه هذا التحديد .

والرائع أن كعبا أوماً إلى المعنى الموحش الذى بيّنه فى ذكر تلون الغول فى أثوابها ثم تمشّى هذا المعنى الموحش من القصيدة كلها، تراه فى حديثه عن النواحة التى جاوبتها نكد مشاكيل وفى حديثه عن الذين يقولون حوله «إنك يا ابن أبى سلمى لمقتول» وفى ذكر الفيل ولحوم الأقوام المطروحة فى غيل الأسد، أقول أوماً كعب إلى المعنى الموحش الذى جرى فى القصيدة بكلمة فى البيت الأول وهى كلمة القافية (لم يفد مكبول) لأن المكبول هو المصفّد بالأغلال وهذا غير المتيمّ وغير المتبول . وقصيدة النابغة «بادارميّة بالعلياء فالسند» تجد الشطر الأول الذى هو بمشابة مطلع مطلعها يحمل معنى نادرا فى ذكر الطلل وهو أنه طلل حصين وأنه بالعلياء والنابغة يذكر العلياء وهو يريد المنعة وذلك مثل قوله «وحلّت بيوتى فى يفاعٍ مُمنّعٍ» ثم هو بالسند، والسند من السناد، وهو ما ارتفع من الأرض فى قبل الجبل، أى قبالة الجبل، ولم أجد مثل هذا فى مطالع النابغة ولا فى مطالع غيره، ولا بد أن يكون له هنا مغزى ولا بد من البحث عنه، وأرى هذا إشارة إلى بُرْهان تبرئة النابغة مما نُسب إليه فى شأن المتجرّدة، وهذا موضوع القصيدة، وبهذا تجد دلالة المطلع على المقصد دلالة ظاهرة، وتجند براعة الاستهلال على خير وجه، والنابغة ممن عرفوا بتجويد المطالع، وتناقل أهل العلم بالشعر قوله:

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

ثم إنه لم يقف عند أميّة، ولم يخاطبها إلا بهذه الجملة . ثم إنه حرّف

الخطاب عنها إلى دارها، إمعانا في بعده عن مية، وهذا واضح في ملاءمته للغرض المسوق له الكلام، ثم ذكر سالف الأمد وأكد هذا المعنى، وهذا عنصر له مقام سببته، ثم ذكر أنه وقف في الطلل أصيلا يسائله، وإنما اختار ذكر الأصيل وهو آخر اليوم ليومىء إلى أنه اتهم بهذا بعدما أسن واحتنك، وتأمل قوله «أقوت وطال عليها سالف الأمد» وكل الكلمات في هذه العبارة تؤكد طول الزمن وقوله «أخنى عليه الذى أخنى على لبد» أبين فى وصف الطول وأظهر، لأن لبدًا آخر نسور لقمان السبع، والعرب يضربون به المثل فى طول الزمن، وكل هذا شديد الملاءمة للغرض، لأنك لا تستطيع أن تدفع عن نفسك احساس النابغة بطول صحبته للمناذرة، فقد كان جليس النعمان وجليس أبيه من قبله، وجليس جده من قبل أبيه، ولا يجوز لمن خالط هذا البيت الكريم هذا الزمن المتطاوّل أن يرمى فى آخر سنه بهذه البائقة. ويدخل فى الدلالة على الغرض رجوع الشعر إلى الزمن الذى أبتدىء فيه بناء الطلل، ويسترجع النابغة صورة الوليدة وفى يدها الفأس وهى تعد وتحكم بناء الدار وتصونها من أى فساد يمكن أن يداخلها وخصوصا قوله:

خَلَّتْ سَبِيلَ أَتَىٰ كَانَ يَحْبِسُهُ وَرَفَعَتْهُ إِلَى السُّجْفَيْنِ فَالْتَضَدَّ

يعنى أنها حفرت حفيرا يصرف الماء عن الطلل، ورَفَعَتْهُ إِلَى السُّجْفَيْنِ مثنى سَجَف بكسر السين والمراد الستارة التى تكون فى أول البيت.

وهذا واضح فى دلالته على مزيد من العناية والمحافظة على ما وراء الستر حتى لا يتسلل إليه الفساد من أى طريق، وكلمة «السُّجْفَيْنِ» كأنه جىء بها للإيماء بهذا المعنى، وكلمة «الْتَضَدَّ» التى هى المتاع داخل البيت كأنها تؤكد هذا. ثم إن فيه إشارة إلى أن الحفاظ وسد كل أبواب المفاسد التى يمكن أن تتسلل إلى ما وراء الستر هو شأن من شئوون الكرام، وأنه لا يكفى أن تكون المرأة محافظة وإنما يجب أيضا أن تكون محفوظة، وأن تكون مائعة ممنوعة، وهذا مما جرى فى شعرهم. ولا أستطيع أن أدفع ما فى هذا من إشارة خفية إلى النعمان

تومىء إلى أن من أشاعوا فى قالة السوء هذه أسأؤوا إليك كما أسأؤوا إلى، لأنهم
أتهموك بالتفريط فى المحافظة والصون فى شأن لا يفطر فيه كرام الناس.

وقوله:

فعدَّ عما ترى إذ لارتجاع له وأنم القُتود على عَيْرَانَةٍ أَجْدٍ

هو ما نَسَمِيَة اقتضابا، وعكسه حسن التخلص، والبعض يستحسن حسن
التخلص، ويقولون إن القطع والاقتضاب فى كلام العَلِيَّة من الفصحاء إنما كان
يكون منهم اقتدارا وإدلالا، وأنهم لا يحتفلون بالصنعة ولا يحتشدون لها، وكل
هذا جيد، وأجود منه فيما أرى أن الشاعر حين ينتفل على وجه الاقتضاب هذا
ويقول «عدَّ عما نوى» أو يقول «دع ذا» وهذه هى الصيغ الشائعة فى هذا المقام
كأنه يقول اطو صَفْحَةً مَا مَضَى لأن ما مضى لا ارتجاع له، ومن العبث أن
تستهلك وقتك فى استرجاعه والحديث فيه، وإنما عليك أن تواجه المستقبل، وأن
تحتشد لهذا المستقبل بكل طاقتك؛ وأن تُعدَّ له كل عُدَّة، ولا أشك أن المبالغة
فى وصف الراحلة وأنها عَيْرَانَة أى قوية كالبعير، وأنها أَجْدُ بضم الأولين أى قوية
صلبة شديدة وأنها تشبه الثور أو حمار الوحش، ووضع الرحل عليها والرحلة بها
كل ذلك من خوض المستقبل المغيَّب واعداد العُدَّة الكاملة له، وطرح الماضى
بخيره وشره، وما كان سارا منه وما كان غير سار.

ومن مفاجآت الغيب التى يحرص الشاعر على الإشارة إليها صور الصراع
التي تكون بين كلاب الصيد والثور أو حمار الوحش، ويحرص الشاعر على الإشارة
إلى أن هذا الثور أو هذا الحمار وأتُّنُهُ كان كل منها ماضيا فى شأنه لا يسىء إلى
أحد، ولا يضر أحد، ثم لم تمنعه هذه المسألة من أن يرمى بالداهية التى لا تطلب
منه أقل من نفسه، فيرمى بالصائد وسهامه وكلابه من حيث لا يدرى إلى آخره،
كل هذا داخل فى مثل قوله «وأنم القُتود على عَيْرَانَة أحد» يعنى اجتهد بكل
ما لديك من وسائل فى مواجهة غيب الأيام واضطرح كل ما يشغلك من شأن
ما مضى الذى يجب أن تدعه وأن تُعدِّي عنه.

* * *

عرضت فى هذا الكتاب لرائعة حسان «ألم تسأل الربع الجديد لتكلمها» ولم أشرحها، وإنما ذكرتها لأنها كانت الباعث الذى بعث قصيدة الفرزدق التى شرحتها.

وهذه القصيدة من أجود الشعر، وفيها من الخواطر والصور وبراعة الصنعة ما يزاحم به حسان روائع امرئ القيس والنابغة والأعشى وزهير.

وأريد فى هذه المقدمة أن أضع الخطوط العامة التى تعين القارئ على دراستها، والذى يُعيننى على أن أتعلّم بنفسى أفضل عندى من الذى يعلمنى ولا ضير أن يكون فى هذا الذى أعرضه ما يطابق طريقة تحليلى أو يخالفها، لأننى كُلفُ بالبحث عن طريق فيه شىء من المخالفة أو التعديل أو التطوير للطريق الذى أسير عليه. وأصيب فى ذلك وأخطئ وكُل من يبحث عن الصواب بعقله هو يصيب ويخطئ، وما أيسر أن نمد أيدينا إلى المناهج الجاهزة التى قام عليها أصحابها وسهروا، ولكن هذا عندى شىء كرهه، وعجز وتبعية وأنا لا أرفض هذا فقط وإنما أزدريه، ولأن أخطئ متبعاً لعقلى أفضل من أن أصيب مقتدياً بعقل غيرى. وليس هذا عندى من رأى وإنما هو من الاعتقاد.

وأول شىء أريده هو معرفة بناء القصيدة، أعنى معرفة فقراتها أو فصولها أو موضوعاتها، ووجه ترتيب هذه الفصول، وكيف كان أولها مهاداً لثانيها؟ وكيف تتابعت فى اتساق وبناء محكم؟ ثم معرفة المعانى الجزئية الداخلة فى تكوين كل فصل، لأن معرفة وجوه الترتيب معرفة دقيقة توجب معرفة هذه الجزئيات معرفة أدق.

وكل هذا يقتضى وقوفاً طويلاً عند كل كلمة، وكل صورة وكل شىء جرى فى نفس الشاعر دق أو جل، ظهر أو خفى.

وهذه القصيدة تبدأ بسؤال الربع أن يتكلم ثم بيان أنه أبى أن يتكلم ثم تعليل وتبرير امتناعه عن أن يتكلم لأنه لا ينطق المعروف من كان أبكماً، ويمكن أن يكون هذا المقطع من المعنى فصلاً أو فقرة أو بابة من بابات معانى القصيدة،

ثم يأتي الذي يليه مرتبطاً به أشد الارتباط لأنه ذكر أن هذا الربع دار لشعشاء
 الفؤاد وأترابها وبهذا انتقل الكلام إلى صاحبة، ثم شبهها بالظبية التي ترعى
 أراكاً مُنظماً، ثم وصف الخصب الذي فيه هذه الظبية فذكر السحاب والمطر
 وجود؛ وبهذا ينتهي هذا القسم، ثم يأتي الذي يليه وهو رحلة شعشاء الفؤاد
 وأترابها، ويوجز ويبلغ بإيجازه ما لم يبلغه غيره بكثير من الكلام، ويومئ
 إيماءات قصيرة جداً تفتح باباً من المعاني متسعا جداً من ذلك إيماءة إلى حسنهن
 وحبهن وتعلقهن وحنينهن وتعلقهن بالأرض التي يرحلن عنها، وما هن فيه من
 نعمة كل ذلك وأكثر منه بكلمة واحدة تبلغ الغاية في الحسن وهي قوله «عَسَجَنَ
 بأعناق الظباء» ثم يقابل حبهن وودهن وتعلقهن بالديار بحبه ووده وتعلقه بهن
 وذلك بإشارة بالغة الدقة وهي حديثه عن الدُرقل المرقم والوشى المنمنم لأن معنى
 هذا أن عينه معقودة بهوادجهن ترى ما ظهر وما خفى حتى الوشى المنمنم.

ثم يأتي قسم آخر أو فصل آخر يحدث فيه عن نفسه بخلاف ما جرت به
 عادة الناس أن يتكلموا وهو أنه لن يرحل في إثرهن كما كان يرحل الناس،
 والرحلة في الشعر قد تكون لطلب صاحبة، وقد تكون لتسلية الهم الذي ألم
 بسبب رحلة صاحبة؛ وقد تكون لطلب الخصب والثروة، وحسان يخالف كل
 هذا ولا يرحل بسبب من هذه الأسباب وإنما يكتفى بأن يرسل لها في كل عام
 قصيدة، ويقعد هو مكفياً بيثرب مكرماً. وأنه نعم الجار، وأن له ندمان صدق
 «تمطر الخير كفه» إلى آخر ما حدث به عن نفسه وهذا دخول في صلب غرض
 القصيدة التي بلغ فيها حسان الغاية في الحديث عن نفسه وقومه، ولم أقرأ شاعراً
 ذكر نفسه وقومه بأنبل وأرفع وأشرف ما ذكر به حسان نفسه وقومه، وهذا هو
 الذي أدركه الفرزدق فبنى فائتيه التي درستها على المبالغة في عزه وعز قومه.

ولا شك أن أي قارئ يدرك إحكام مباني هذه الفصول وقوة ترابطها، وأنه
 لا يمكن أن تقدم منها شيئاً أخره الشاعر، أو تؤخر منها شيئاً قدمه، والتلاحم
 والتلازم والترابط وحس الاقتران كل ذلك قائم فيها على وجه بالغ الدقة
 والسلاسة والجودة.

وبقى أن أشير إلى ما يجب أن يلاحظ فى دراسة هذه الفصول لأن هذه المعاهد التى أوجزتها مع أهميتها ليست هى التى تكشف عن حياة القصيدة وحدها وعن بنائها، وإنما تكشف عن حياة القصيدة حين ينضم إليها المراجعة الدقيقة للجزئيات التى تكونت منها هذه الفصول، لأن هذه الجزئيات بظلالها ودقيقها وجليلها هى التى تعين على فقه هذه الفصول التى تقوم بها حياة القصيدة.

وأنا لا أدرس ذلك وإنما أحدد الطريق كما قلت.

وأول ما يجب أن أتكلم فيه فى دراسة الفصل الأول ليس هو تحديد معناه وتحديد طريقة بناء العبارة عن هذا المعنى، وإنما هو أن أجيب عن سؤال يقول لماذا اختار الشاعر هذه الجهة من جهات المعانى دون غيرها من جهات أخرى كان يمكن أن يبني كلامه منها، أقول مثلاً لماذا اختار حسان أن يكون حديثه عن الديار هو سؤال صاحبه هل سألت الربع أن يتكلم وكان يمكن أن يقف مثلاً ويستوقف، أو يصف الربع، وأنه كخط زبور فى عسيب يمان، أو أنه كمراجع الوشم فى نواشر معصم، أو أن يقف فى الطلل يسائله، أو يذكر فيه أيام لهوه، أو ما شئت مما جرت عادة الشعراء أن يتكلموا به إذا ذكروا الديار، وقد تكلم حسان بغير هذا الذى تكلم به فى هذه القصيدة فى قصائده الأخرى.

والجواب هو أنه لا بد أن يكون لما اختاره حسان هنا من سؤال الربع أن يتكلم مزيد خصوصية للغرض المسوق له الكلام، ولا بد من كشفه، والاقتناع به، وإقامة الدليل عليه، لأنه لا يجوز لنا أن نكتب لمن يأتى بعدنا كلاماً مُرتجلاً.

والذى ذكره حسان من سؤال الربع أن يتكلم، واقع موقعه من وجهين:

الوجه الأول: أنه مطلع دال على المقصود من القصيدة دلالة ظاهرة لا تدفع؛ لأن غرض القصيدة هو مآثره ومآثر قومه؛ فلسان حسان فيها متكلم بهذه المآثر التى شهد بها هذا الربع، ودارت كل مكreme منها عليه، ويلاحظ أن حسانا كرر كلمة التكلم بلفظها فى الشطر الأول من البيت الثانى وبمعناها فى الشطر الثانى

من البيت الثانى، ولا يمكن أن يكون هذا التكرار خاليا من المغزى، ومغزاه أنه روح القصيدة وجوهرها.

والوجه الثانى: وهو يؤكد هذا الوجه هو أن هذا المطلع يلتقى مع مقطع القصيدة التقاء ظاهرا لا يُدفع، وراجع البيت الذى قبل الأخير وضعه بإزاء البيت الثانى من القصيدة.

يقول حسان فى البيت الثانى:

أبى رَسْمُ دَارِ الْحَيِّ أَنْ يَتَكَلَّمَ وهل يَنْطِقُ المعروفَ من كان أبكما
وقال فى البيت قبل الأخير:

أبى فعلُنا المعروفَ أَنْ يَنْطِقَ الْخَنَّا وقائلُنا بِالْعُرْفِ إِلَّا تَكَلَّمَا

وهذا من أفضل ما أتبينه من رد العجز على الصدر فى القصائد، ولم أجد هذا على الوجه القريب السهل إلا فى الشعر المتقن الجيد، وكأن حسانا يريد أن يدلنا على هذا الوجه الدقيق من وجوه براعة الصنعة وهو رد عجز القصيدة على صدرها فكرر حذو البناء فى البيتين:

أبى رَسْمُ دَارِ الْحَيِّ أَنْ يَتَكَلَّمَ

أبى فعلُنا المعروفَ أَنْ يَنْطِقَ الْخَنَّا

وكرر الكلام وتأمل حذو بنائه، ثم قابل بين:

وهل يَنْطِقُ المعروفَ من كان أبكما

وقوله: وقائلُنا بِالْعُرْفِ إِلَّا تَكَلَّمَا

وهذا ظاهر فى أن هذا المطلع متمكن فى موقعه ومتلائم مع سياق القصيدة ولو أن حسانا جاء بكلام آخر مما تذكر به الديار لنبا به مكانه وشد ولم يتلاءم مع سياق القصيدة، وهذا من أجل ما نستكشفه فى الشعر ومن أجل ما يكتب فى بناء القصيدة وترابطها وتساندها.

ولابد من النظر فى وجه بناء العبارة، لأن وجه بناء العبارة هو جوهر صنعة الشعر، وهو الذى يفضل به كلامٌ كلاماً، ثم إن بناء العبارة ليس صنعة لسان، وليس فى الشعر ولا فى البيان صنعة لسان، وإنما هو فى حقيقته إجتهد فى أن تكون الصورة اللغوية مصورة تصويراً دقيقاً وأميناً للصورة النفسية أو المعنى القائم فى النفس.

وتأمل الاستفهام الذى بدأت به القصيدة، والاستفهام من العناصر المثيرة التى توقظ وتنبيه وتهىء النفس، ولذلك كثرت فى مطالع القصائد، ثم إن الاستفهام هنا داخل على النفى «ألم تسأل الربع الجديد التكلم» وإنما يبنى الكلام على ذلك إذا أريد التقرير بالمعنى الذى دخل عليه النفى، وليس الذى دخل عليه الاستفهام، أو أن يراد الإثبات كما فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ بمعنى شرحنا لك صدرك، ثم جاء البيت الثانى الذى يقول: «أبى رسم دار الحى أن يتكلم» وكان المخاطب سأل الربع وأبى الربع أن يتكلم والشاعر يخبر بذلك، ثم يقول: «وهل ينطق المعروف من كان أبكما» ويُعيد الاستفهام الدال على النفى وكان الشاعر رجع عن سؤاله واعتذر عن الربع، ثم إن الشاعر هنا يخاطب نفسه يعنى جرد من نفسه شخصياً يخاطبه وهم يفعلون ذلك إذا كان المعنى مما أهتمهم وصار المتكلم يؤمر فيه نفسه، وكل ذلك مما له فضل دلالة، وفضل معنى، ولو نطق الربع لقال: «نعم الجار يؤلف ضيفه» ولحدّث عن قومه بما حدّث هو به لأن الربع هو داره التى كانت تقيم فيها شعشاء الفؤاد التى رحلت وبقي هو «مكفياً بيثرب مكرماً».

أما حديث صاحبة وهو الفصل الثانى من فصول القصيدة فإن الشاعر فيه لم يقل شيئاً عن صاحبة، وإنما فقط شبهها بالطيبة، ثم ذكر مرعى الطيبة، والخصب الذى تعيش فيه، ووصف السحاب، والمطر، وحنين مطافيل الرباع، وأيضاً حنين السحاب إذا هبت عليه الريح إلى آخر ما قال.

وكان يمكن أن يتحدث عن الصاحبة حديثا آخر كأن يقول كما يقول الشعراء «تَصَدَّ وتبدى عن أسيل» أو أن ثغرها «كالأقحوانه» أو أنها «استَبَّتْه بعارض» أو يذكر ريققتها، وأنها «أنابيب رمان وتفاخ» أو يذكر طيب ريحها وأن بها طيبا وإن لم تطيب، أو أنها تزيد أطييب الطيب طيبا أو أن نافجة مسك سبقت عوارضها إليك من الفم إلى آخر ما يعلمه حسان وقد ذكر بعضه في غير هذه القصيدة، وهذه هي جهات المعانى فى باب النسب، فلماذا سلك حسان هذا الطريق الذى سلكه؟ لا أستطيع أن أجيب إلا إذا راجعتُ القصيدة مراجعة يقظة وتجلى لى التلاؤم بين ما ذكره وبين مكونات القصيدة.

والذى لا أشك فيه أن حديث السحاب والمطر والحنين والخصب الذى وضعه حسان موضع غيره متلائم أشد ما يكون التلاؤم مع مكونات القصيدة، وغرضها، لأن القصيدة معقودة على بيان ما فيه حسان وما فيه قومه من ثراء، وخصب، ومعنى الثراء، والقوة، والقرى، وكرم العرق يجرى فى القصيدة كلها. فحسان يقعد مكفيا ييثرب مكرما، وقومه أولو عتاد «أبقى لهم مر الحروب ورزؤها سيوفا وأدراعا» وهم يطعمون الناس فى المَحَل «من الشحم ما أمسى صحيحا مُسَلِّما» يعنى لحما طيبا وأنهم ينحرون للقرى أجود الإبل وأصحها وأن الواغلين حول بيوتهم «كانهم يَنْوَبُونَ بَحْرًا من سَمِيحة مُعَلِّما» والواغل هو الذى يدخل فى الطعام من غير أن يدعى، وبئر سميحة بئر بالمدينة كثير الماء، وأنهم من عرق كريم ليسوا ممتهنين، وأنهم يرشحون مسكا، وأن عروق الجوف منهم تنضج العندم، أى الريح الطيب.

وبهذا تظهر الملاءمة التى لا يستطيع دفعها بين المعانى التى ذكرت بها الصاحبة وما بنيت عليه لبقصيدة.

وراجع بناء العبارة وكيف عبر عن الظبية بحوراء المدامع لينتقل الكلام انتقالا سهلا رهوا إلى السحاب، ثم كيف وصف السحاب، والمطر، وقد أفاد كثيرا من وصف أوس بن حجر للسحاب فى حائيته المشهورة، كما أفاد من

امرىء القيس فى آخر معلقته، ونقل إلى كلامه كلماتٍ من امرىء القيس وصورا من أوس وهذا لا يعاب به حسان لأنه بذلك دلنا على العناصر الجيدة وأنه من الجودة أن تختار الجيد. وإنك إذا أدخلت عناصر الجودة التى تقع عليها فى كلام غيرك وأحسننت صنعتها، وإدخالها فى سياقك، وفى نسيج بيانك دخولا مأنوسا كان ذلك من الفضل الذى تذكر به.

ومن المفيد فى أى قصيدة نقرأها أو فى أى نص. أن نشير إلى أفضل ما نراه من صيغ وصور وأبيات مما كان يسميه البحترى عروق الذهب الجارية فى الشعر وبعضنا يسميه أحيانا بالشذرات المضيئة، أو الجمل الأكثر تالقا؛ من مثل قوله «عسجن بأعناق الطباء» ولم أقرأ أفضل منها فى معناها، وسر حسنها إنما هو فى إضافة الأعناق إلى الطباء، ولو قال عسجنا بأعناق كأعناق الطباء لخرج إلى كلام آخر والذى رآه حسان هو ما حدثنا به، وأنهن عسجن بأعناق الطباء، وليس بأعناق كأعناق الطباء، وفرق بين أن تقول لقينى بوجه كوجه القمر وأن تقول لقينى بوجه القمر، لا أقول إن الفرق فرق فى الصياغة وإنما الفرق فرق فى المعنى القائم بالنفس.

ومن ذلك قوله:

أَلَسْتُ بِنَعَمِ الْجَارِ يُؤَلَّفُ بَيْتُهُ كَذَى الْعُرْفِ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَمُعْدَمَا

وهذا المعنى فى نفسه شريف، وأكرم الناس من يقال فيه نعم الجار، وأكرم الناس من كان يؤلف بينه، وهذا الاستفهام الذى بدأ به البيت أجرى فى هذا المعنى الكريم معنى صار به أنبل وأكرم، وهو أن هذا الوصف الكريم لا ينكره منكر، وأن كل من يتوجه إليه هذا السؤال يقر بما فيه، وأنه نعم الجار، ولا شك أن إقرار الناس بالفضل لذى الفضل هو عدل فضلهم وأرجح فى باب الذكر.

وقوله «تُطْرُ الخَيْرَ كَفُهُ» من أكرم ما يختار ويحفظ، والفضل فيه راجع إلى تخلق هذه الصورة فى نفس قائلها، وقدرة هذه النفس على أن تولد منها وفيها البواعثُ صورا حية غضة طريفة كهذه، وليس للسان حسان فى هذا فضل،

إلا أنه استطاع أن يحدّد لنا بدقة هذه الصورة كما آثارها وبعثها، وكونها خيالاً حسان، لا بد لنا أن نتعامل مع الصور لا من حيث هي صور في الكلام وإنما حيث هي كوائن حية داخل نفس صاحب البيان وهذا هو فقه الصور والاستعارات، ويجب أن نتخلى عن التوقف عند بناء اللغة لأنه ليس هو الدلالة، وإنما هو دليل الدلالة، والدلالة هناك حيث يجيش البيان داخل القلوب والعقول، يعنى فى عالمه الحى المتحرك المتجسد المتدافع فى غضارته ونضارته وطراوته. فضل حسان أنه قام فى نفسه ندمان صدق تخطر الخير كفه، يعنى صورة صاحبه وكفه تخطر خيراً.

وحيث يقول البلاغيون إن هذا من الاستعارة المكنية التى هى التشبيه المضمّر فى النفس. والمخدوف والمذلّل عليه بلازم من لوازمه؛ هم فى الحقيقة يستمدون كلامهم من جذر الفكرة داخل النفس، وراجع كلامهم، تجذّهُ كلّهُ فى وصف وتحليل الخواطر التى تحركت فى النفس، وأخرجتها اللغة فى هذه الصورة. ويبين لك هذا بجلاء حين تراجع خلافتهم فى مفهوم المكنية، تجد الجمهور يقول التشبيه المضمّر فى النفس، والزمخشري يقول الاستعارة المضمّرة فى النفس فالجمهور يرى فى صورتنا أن حساناً شبه كف ندمان الصدق بغمامة ثم سكت عن التشبيه ورمز له بذكر المطر الذى هو من خصوصية الغمامة، والزمخشري يقول إن حساناً لم يشبه كف صاحبه بالغمامة وإنما جعلها غمامة، وفرق بين أن تشبه الشئ بالشئ وأن تجعل الشئ الشئ، والمهم أنه قد آن لنا أن نفهم كلام العلماء على وجهه، وأنه حديث عن جذور الصور داخل نفوس أصحاب البيان. وأن فضل عبارة على عبارة يعنى فضل قدرة نفس فى صناعة صور. وفى حساسية ودقة استجابات هذه النفس للبواعث فقد أقول فى وصف صديق كريم إنه كريم جداً أو إن يده لا تنقبض، أو أنه لا يحسب للمال حساباً، أو أنه يعطى بسخاء، وهذا ما ينبعث فى نفسى، ولكن الذى انبعث فى نفس حسان هو تخطر الخير كفه وهذا من القليل النادر الرائع، وهذا حسبي.

ومما جَوَدَ فيه حسان وتقدم قوله :

وأبقى لنا مَرُّ الحروب ورزُّها سيوفاً وأدراعا وَجَمْعاً عَرَمَرمَا
ألسنا نردُّ الكبش عن طِيَّةِ الهوى ونقلب مُران الوشيح مُحْطَمًا

ولم يمتلك الناس شيئاً أعظم وأجل وأقدس من القوة، لأنها هي الحارس لكل ما يملكون، وإذا ضاعت القوة فكل شيء ضائع، ليست الأرض والثروة فحسب، وإنما أيضا العقائد والثقافات، يعنى ما هو داخل النفس الإنسانية أيضا مما ينطوى ضميرها عليه، والتاريخ شاهد، والحاضر أيضا شاهد على صدق هذا المعنى الذى قاله حسان، وهذه القصيدة من شعر حسان فى الجاهلية، وهذا المعنى من قيمهم فى الجاهلية وهذا مما أكدته الإسلام.

وقد أتى حسان هذا المعنى من جهة تختلف عن جهات كثيرة، فلم يصف جيشاً ولا زحفاً ولا سلاحاً ولم يقل كما قال غيره «وأفنى الردى أرواحنا غير ظالم» وإنما جاء إلى المعنى من الجهة التى ترى، وكلمة «أبقى لنا مَرُّ الحروب ورزُّها» فيها معنى أن هذه الحروب وهذه الأرزاء كان الأصل ألا تبقى لهم سلاحاً ولا رجالاً لو أنه خاضها غيرهم، وفى هذا معنى التمييز، وكأنه لهذا جرت فى نفس حسان نشوة تراها فى علو الرنين فى الشطر الثانى. هذا العلو الناشئ من هذه المنصوبات الأربع التى تتابعت «سيوفاً وأدراعا وَجَمْعاً عَرَمَرمَا» وهذا ظاهر لمن يكرر هذا الشعر ويحسن الاستماع إليه؛ وكان حساناً أراد أن يقدم لك برهان هذه النشوة وباعثها فى نفسه فقال «ألسنا نرد الكبش عن طِيَّةِ الهوى» وهذا من معدن قوله «ألست بنعم الجار» وكأنه يقول إن ردع المتغطرس الذى تُغريه قوته بالعبث الذى لا نرضاه أمر لا ينكره علينا منكر، والناس جميعاً يقرون لنا بالقدرة على رد من يخدعه غروره فيظن أنه قادر على أن ينال منا شيئاً، وهذا المعنى كله نشوة تسرى فى النفس عند الاحساس به، وما أروع القوم يردون الكبش عن طية الهوى ولا يشفى غليل الحر إلا هذا، وليتك تعود لنا بقومك يا أبا عبد الرحمن فقد أكلتنا الضبيع.

ومما استحسنه في هذه القصيدة الرائعة قوله :

بكل فتى عارى الأشاجع لأحبه قراع الكمأة يرشح المسك والدماء
إذا استدبرتنا الشمس درت متوننا كأن عروق الجوف ينضحن عندما

والشاهد « يرشح المسك » وهذا معنى غريب ونادر وكان حسانا قد استحسنه فرجع إليه وفصله وزاده وذلك في البيت الذى يليه فى قوله « كأن عروق الجوف ينضحن عندما » وهو من باب يوشح المسك .

هذا والله أعلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعهم بإحسان

دكتور

محمد أبو موسى

المعادى الجديدة :

اليوم الثانى من رجب ١٤٢٦هـ

الموافق ٧ من أغسطس ٢٠٠٥ م